تهشيم الأنْسَاق المهيمنة فِيْ القَصَصِ القُرآني
ـ قصَّة السَّيدة مَرْيَمَ (عليها السلام) إنموذجًا ـ

The destruction of the dominant patterns in the Qur'anic stories
- The story of Lady Mary (peace be upon her) as a model

م. د. نجاح جاسم معلَّة السَّاعِديُ
الجامعة المستنصرية ـكلية التربية

Dr.Najah Jasim Mella Alssaeidy
Al-Mustansiriya University / College of Education

كلمات مفتاحية :تهشيم، الأنساق المهيمنة، قصة مريم (عليها السلام))

ملخص البحث

إن القصص القرآني يمتلك مجموعة من الخصائص التي تمنحه سمة التميز والفرادة، منها الواقعية والصدق، والحكمة، والأخلاق، فضلاً عن كونه في الغالب يعرض لنوعين من الأحداث والوقائع الأول يخص حياة أمة من الأمم الغابرة والثاني يصور الجوانب الرئيسة لحياة الأنبياء والرسل، ويسلط الضوء على دقائق حياتهم ومعاجزهم وخصائصهم، ويفصل القول في معتقدات أممهم وتعتبر قصة السيدة مريم (عليها السلام) من القصص القرآني الخالد، إذ اشتملت على عناصر البناء القصصي الرفيع من أحداث وشخصيات ومقومات النسيج القصصي (الحوار، السرد، الوصف)، وأوعية الحدث المتمثلة في (الزمان، والمكان)، وعنصر القوى الغيبية.

هذه العناصر تعاضدت وتوزعت على أبعاد النص القرآني في قصة السيدة مريم (عليها السلام) توزيعاً جعل لكل منها وظيفة رئيسة يختل بغيابه توازن هذه القصة بنائياً ودلالياً لأن المقاصد والأهداف التي ينشدها السياق القصصي هي التي تسهم في تحديد أساليب العرض وطرق بلورة الأحداث وتوليدها بانتظام منتج وتحديد البؤر التي ينبغي تسليط الضوء عليها، وأن من أهم البؤر التي تبث أشعة دلالية وجمالية من أعماق قصة السيدة مريم (عليها السلام) هي بؤرة الصراع القائم بين الأنساق المهيمنة (نفوس قوم مريم (عليها السلام) والعقل (مريم (عليها السلام)) وما اصطف معها من عناصر التأييد الرباني المتمثل بالروح (عيسى عليه السلام) والوحي (جبرائيل عليه السلام).

Abstract

Quranic stories are characterized by a number of features that make them unique and remarkable. Among these are reality, credibility, wisdom, and morality. In addition to that, Quranic stories often manifest two types pf events and happenings. The first is a related to the life of the past nations. The second exhibit the main aspects of prophets and messengers lives, in that it highlights their lives fine details, their miracles and merits as well as their nations beliefs. Lady Mariam's story (pbuh) is one of the immortal Quranic stories. It has the elevated narrative structure elements of events, characters, plot establishment basis (dialogue, narration, and description, in addition to settings represented by time and place) with elements of metaphysical powers.

These elements are semented and distributed over the dimensions of the Quranic text embodied in the Quranic text of lady Mariam's story. Such a distribution has endowed each with a main function whose absence would disturb the equilibrium of the structure and semantics of the story since the objectives and goals that this story seeks to materialize are the ones which define the story presentation mechanisms, the ways to crystallize and generate events systematically to make it such a productive story where the main themes should be highlighted. Among the most important themes that glow with meaningful and anesthetic denotions deep from the story of lady Mariam (pbuh) is the theme of conflict between the hegemonic characters in the story (lady Mariam's people) and reason represented by Mariam (pbuh) and those who have stood by and supported her who represent the divine support embodied in the soul of Jesus (pbuh) and Gabriel (pbuh).

المقدمة

الحمدُ لله الذي لا معبودَ سِواه، وأتمُّ صَلاتهِ وأزكى سلامهِ على الرَّحمة المُهْدَاة نبيُنا محمد رسول الله، وآله الميامين الهُداة.

قال تعالى في مُحكم كتابهِ الكريم: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (يوسف: ٣).

إنَّ القَصص القُرآنِي يمتلك مجموعة من الخصائص التي تَمْنَحهُ سِمَةَ التَّميُّز والفَرادة، منها الواقعيَّة، والصِّدق، والأخلاق، فضلاً عن كونهِ في الغالب يعرضُ لنوعين من الأحداث والوقائع، الأوّل يخصُّ حياة أُمَّةٍ من الأُمم الغابرة، والثاني يصور الجوانب الرئيسة لحياة الأنبياء والرُّسل، ويسلط الضوء على دقائق حياتهم، ومعاجزهم، وخصائصهم، ويفصل القول في معتقدات أُممِهم.

وتعتبر قصة السَّيدة مريم (عليها السلام) من القصص القُرآني الخالدِ، إذ اشتملت على عناصر البناء القصصي الرفيع من أحداثٍ، وشخصياتٍ، ومقومات النسيج القصصي (الحوار، والسَّرد، والوصف)، وأوعية الحدث المتمثلة في (الزمان، والمكان)، وعنصر القوى الغيبية.

هذه العناصر تعاضدت، وتوزعت على أبعاد النص القرآني في قصة السيدة مريم (عليها السلام) توزيعًا جعل لكلٍّ منها وظيفةً رئيسةً يختل بغيابهِ توازن هذه القصة بنائيًا ودلاليًّا؛ لأنَّ المقاصد والأهداف التي ينشدها السياق القصصي هي التي تُسهم في تحديد أساليب العرض، وطُرق بلورة الأحداث وتوليدها بانتظامٍ مُنتج، وتحديد البؤر التي ينبغي تسليط الضوء عليها.

وإنَّ من أهم البؤر التي تَبثُّ أشعةً دلالية وجمالية من أعماق قصة السيدة مريم (عليها السلام) هو بؤرة الصراع القائم بين الأنساق المهيمنة (نفوس قوم مريم (عليها السلام)) والعقل (مريم (عليها السلام))، وما اصطفَّ معها من عناصر التأييد الرَّبَّاني المُتمثَّل بالروح (عيسى (عليه السلام)) والوحي (جبرائيل (عليه السلام)) .

وقد ارتكزت هذهِ الدراسة على منهج الاستقراء والتحليل في التعامل مع النصوص المباركة التي اشتملت على قصة السيدة مريم (عليها السلام)، وعملت على توظيف معطيات النقد الثقافي في رصدِ حركة الأنساق المهيمنة في القَصَّةِ، ومتابعة أحداث الصِّراع المُتنامي في أعماقِها بين أطرافٍ قد تبدو في الظاهر مُتَصالِحة ومُتَوادة ولكنَّها في الباطن مُتَصَارعةً ومُتَقاطِعة، والكشف عن نتائج ذلك الصِّراع والمصير الذي آلَت إليهِ أَطرافهُ مِنْ تهشيمٍ وانحسار أو نَصْرٍ وازدهار، وجاءت الخاتمة حاملةً لأَهم النتائج المستخلصة مِنَ البحث، وبعدها قائمة المصادر والمراجع، راجين من الله (عز وجل) أنْ يرزقنا تدبُّرَ كتابهِ العزيز، وأنْ يفتح لنا أبوابَ فهمهِ، وينير بصائرنا بضياء هَدْيهِ، وأنْ يكون حُجْتَنا في أَقوالنا وأَفعالنا وسلوكياتنا، والحمدُ لهُ سُبحانَهُ أولاً وآخرًا.

الأنْسَاق المُهَيمِنَةِ فِيْ القَصَصُ القُرْآنِيُ:

وردت لفظة (نسق) في المعاجم العربية بمعنى «كل شيء ما كان على نظامٍ واحدٍ عام في الأشياء»[١]، والنَّسَق في معجم العين: ((النسق من كل شيء: ما كان على نظام واحد عام في الأشياء ونسَقْتُه نسقًا ونسَّقْتُه تَنْسيقًا، وتقول: انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسَّقتْ))[٢]، و ((النَّسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحدٍ عام في الأشياء، ونسَّقهُ نظَّمهُ على السَّواء، وانْتسَق هو، وتناسق، والاسم النَّسق، وقد انتقست هذه الأشياء بعضها إلى بعض أيْ تنسَّقت، وعلماء النحو يسمون حروفَ العطفِ حروفَ النَّسَق؛ لأنَّ الشيءَ إذا عطفْت عليه شيئًا بعده جرى مجرى واحد))[٣]، والتَّنْسيقُ بَيْنَ أمرين يَضْمَنُ جَعْلَهما منتظمين في تَركِيبِهما وفْقَ نَسَقٍ وَاحدٍ.

ويوضِّحُ أحمد بن فارس مدلول الجذر اللغوي (نسق) فيقول: ((النون والسين والقاف أصل صحيح يدل على تتابع في الشيء، وكلام نسقٌ: جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض، وأصله قولهم: ثغر نسق، إذا كانت الأسنان متناسقة متساوية))[٤].

والنَّسقُ من المصطلحات الأساسية في لسانيات النص والخطاب، وقد عُرفَ بأنَّهُ: ((ما يتولد عن تدرُّج الجزئيات في سياقٍ ما، أو ما يتولد عن حركة العلاقة بين العناصر المكونة للبنية، إلاَّ أنَّ لهذهِ الحركة نظامًا معيَّنًا يمكن ملاحظته وكشفه، كأن نقول: إنَّ لهذه الرواية نسقها الذي يولِّدهُ توالي الأفعال فيها، أو إنَّ لهذه العناصر المكونة للَّوحة من خيوط وألوان تتألف على وفق نسق خاص بها))[٥].

والنسق من أكثر المصطلحات النقدية التي تعرضت للنقلات الدَّلالية، فدلالته عند اللسانيين تنحصر بالمفهوم اللغوي [٦].

لا غير، على حين في الدراسات الثقافية أصبح مفهوم النسق يتضمن كل أبعاد النص، ومكونًا أصيلاً في تلقي النصوص وتأويلها [٧]، وتوسعت دائرة النسق الثقافي لتشمل النظم الاجتماعية، والدينية، والثقافية، المتفاعلة فيما بينها لتسيير إنتاج الخطابات الإبداعية والفكرية [٨].

وتمثل الأنساق الثقافية مجموعة من ميكانزمات الضبط والتحكم في السلوك؛ لتنظيم المظاهر الاجتماعية بما فيها المظاهر الثقافية والإبداعية [٩]، فهي آلية من آليات الهيمنة والتحكم في السلوكيات العامة، والممارسات الاجتماعية والعمليات النفسية [١٠]، وبما أنَّ (الأنساق الثقافية قابلة للتطور، شأنها شأن كل عناصر الحياة)[١١]، فهي عرضة للتناسل والتوالد عبر تمظهرات مختلفة، فكل نسق ثقافي قد يتعرض للنسخ (بحسب المصطلح القرآني)؛ لبناء نسق ثقافي على حطام الأنساق المنسوخة عِبْرَ بنية صراعية بين (الأنساق الظاهرة والمضمرة) التي تشكِّل بعدًا فكريًّا لكل الخطابات الإنسانية.

وإذا آمنا بأنَّ النسق لا يتحرك على مستوى الإبداع فحسب، بل إنَّ القراءة، والاستقبال لهما أثر مهم وخطير في ترسيخ النسق [١٢]، ويعمد الناقد الثقافي إلى الكشف عن الأنساق المضمرة في النصوص وتجريد دلالاتها المتواريَّة من أقنعتها، إذ ترتكز مواصفات الوظيفة النسقية على أربعةِ أركان،

هي: إمكانية التقاء نسقين معًا في نص واحد، يكون أحدهما مضمرًا والاخر معلنًا، ولا بد للمضمر من أن يكون مضادًا للمعلن، ويجب أنْ يكون النص جميلاً ويستهلك بوصفهِ جميل؛ لأنَّ الجماليَّة من أخطر حيل الثقافة لتمرير أنساقها، وأخيرًا لا بد للنص من أنْ يكون جماهيريًّا، ويحظى بمقروئية عريضة، لنرى ما للأنساق مِنْ فعلٍ عمومي ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي [١٣].

وإذا آمنا بأنَّ النسق لا يتحرك على مستوى الإبداع فحسب، بل إنَّ القراءة والاستقبال لهما أثر مهم وخطير في ترسيخ النسق [١٤]، أدركنا أن الكشف عن الأنساق المضمرة في النصوص يحتاج إلى ذات قارئة تُخْضِعُ التأويل إلى الانضباط النظري والصَّرامة المعرفية [١٥].

ولن يتحقق هذا التأويل ما لم يتم ((تحليل الجذور الاجتماعية للأحداث المجتمعية والمؤسسات والنصوص، ومهادها ومهاويها وتفريعاتها الإيديولوجية))[١٦]، إذ إنَّ الدخول الصحيح إلى عوالم النص وكشف أسراره لا يتم إلا بفروسية علمية محكمة الأدوات والاجراءات، وهذا الأمر وحده لا يكفي ولا بد من دخول الذائقة التي يحدث لها التدريب المتواصل على الغوص، فالنص فرسٌ أصيل لا تعطي قيادها إلاَّ لفارسٍ متمرِّسٍ في عملهِ وذوقهِ [١٧].

وسأسعى في هذا البحث إلى رصد الأنساق المضمرة (المهيمنة) في قصة السيدة مريم (عليها السلام)، وتجريدها من أستارها، وكشف ما توارى من أسرارها عِبْرَ حراثة أرض النص القَصَصِي في السُّورة المباركة بأنامل الفكر المتأمِّل، وتعريضه إلى أشعة الكشف لمعرفة ما يجري في أعماقهِ من حوارٍ وصراعٍ بين أطرافٍ قد تبدو في الظاهر مُتَصالحة ومُتَوادّة، ورصد مصادر طاقة النسق المهيمن التي تُزِّودُ قُوَّتَهُ، وتُرسِّخُ تَجَذُّره وثباته في شِعَابِ العقل الجمعي وتُسهم في توليد نسق مهيمن، وتمريره خَلْفَ أقنعةٍ مُسَوَّغةٍ مقبولة.

القصص القُرآنِي قَصَّة مريم (عليها السلام):

إنَّ القصَّةَ في القرآن الكريم ((ليست عملاً فنيًّا مستقلاً في موضوعهِ وطريقة عرضهِ وأداء حوادثه، كما هي الحال في القصة الفنية الحرَّة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضهِ الدينية))[١٨].

وتسهم القصة القرآنية في عرض طائفة من الأحداث والوقائع المهمة التي يقتضيها المقام الذي تَرِدُ فيه، وتناسب الموضع الذي تأتي فيهِ، وهي لم تأتِ في القرآن الكريم من أجل الحديث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونهم، ولا من أجل المُتعة والتسلية كما يفعل المؤرخون أو القصاصُون [١٩]، وإنما كان الغرض من القصة القرآنية هو تحقيق جملة من الأهداف الرئيسة، إذ تسهم فيما يرمي إليه القرآن الكريم بعامةٍ من الوعظ والإرشاد والنصح؛ وليكون فيها معينٌ لا ينضب من الأسى للنبي محمد (صلى الله عليه واله) فيصبر كما صَبَر أولو العزم من الرُّسُل[٢٠].

وقد أوْضَحَ القرآنُ الكريم هذين الهدفين من إيراد القصة فيه، إذ قال تعالى: ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [٢١]، وقوله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [٢٢].

وفي ضوء هذين الهدفين نَزِنُ ما ورد في القرآن الكريم من القصص فليس هو بكتابٍ أُنشيءَ للقصةِ قصدًا؛ ولكنَّهُ ينظر إلى القصة من زاوية تحقيق أهدافَه العامة، فَحينًا يَقصُّ القصَّةَ كُلَّها محبوكة الأطراف، موصولةَ الأجزاء، مُرْتَبطًا بَعْضُها ببعض، في تَسَلْسُلٍ وآتساق يُسْلِمُكَ السَّابقُ منها إلى اللاحق، حتى تصل الى خاتمتها كما نجدُ ذلك في قصة مريم عليها وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام، وأحيانًا يأخذ من القصة بعضها ويوردُ جزءًا منها؛ لأن فيه يتحقق الهدف وتكتمل الغاية [٢٣].

وبتسليط الضوء على القصص القرآني وأنساقها في القرآن، نجدها قد مثلت ما يقارب من ربع القرآن الكريم أو أكثر، واشتملت على أرقى نماذج التصوير التي أبهرت الألباب وأعجزت أهل الفنون والآداب؛ لما لها من وقعٍ وتأثير في العقل والنفس والحس بتوافقٍ وتوازن مُنفردين في التعبير والتأثير.

وإنَّ من أهم خصائص القصص القرآني هو الأسلوب التصويري في عرض الأحداث والوقائع، فهي – في الغالب – إمَّا أنْ تعرض أحداثًا ووقائع تخصُّ حياة أُمَّةٍ من الأمم الغابرة، أو تصور الجوانب الرئيسة لحياة الأنبياء والرُّسل، وتسلط الضوء على دقائق حياتهم، ومعاجزهم، وخصائصهم، وتبين معتقدات أُممهم وهو ما نلمسه بوضوح في قصة مريم (عليها السلام).

بَيَّنَ القُرآنِ الكَرِيمْ في بداية الأحداث سعي العقل (مريم (عليها السلام)) في النسق المهيمن إلى النأي عن تجاذبات المادة في المجتمع، والانعزال عن ضجيج الحياة وسَوْرة تداعياتها وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا [٢٤]، محاولة الانفلات من أسر الأنْسَاق المُهَيمِنَةِ في المجتمع، وتهشيم أغلالها المُطبقة في محيط هادئ مشحون بالنقاء والسَّكينة وانشراح أوعية العقل لاستقبال شُحنات الروح فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [٢٥]، فانبثقت من أعماق العقل (مريم (عليها السلام)) أولى ترسبات النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، الذي لم تنفع اجراءات الانعزال والاحتجاب في إزالة بعض تجذراته، فقالت (مريم (عليها السلام)) العقل: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا [٢٦].

وقد جاءت محاولة الوحي (جبرائيل (عليه السلام)) لاقتلاع ما عَلُقَ في تَجذُّرات العقل (مريم (عليها السلام)) من رواسب النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، فقال: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا [٢٧]، إذ إنَّ الوحي (روح الله الأمين (عليه السلام)) وهب العقل (مريم (عليها السلام)) قوةً خارقةً من عند الله (عز وجل) تمثَّلت بروح الله (عيسى (عليه السلام)) قادرةً على اختراق نواميس النسق المهيمن على نفوس الناس في المجتمع (قوم مريم (عليها السلام)).

أفصح العقل (مريم (عليها السلام)) عن قوانين النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام)) بقوله: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ

أَكُ بَغِيًّا [٢٨]، وانْتَفضَ على ادعاء الوحي (جبرائيل (عليه السلام))، بأن يُصبح حاملاً بغلام، وحاولَ تهشيم حقيقة ذلك الادعاء بمعولين من معاول النسق المهيمن، تلقفهما العقل (مريم (عليها السلام)) عِبْرَ طاقة الاستفهام الإنكاري أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ، المعول الأوّل عدم وجود (الرجل/ الزوج) الطرف الثاني الذي تتحقق بوجوده عملية تخصيب بويضة الزوجة على وفق أسباب طبيعية وقوانين راسخة رسمتها الشريعةُ وآمن بها الخلقُ وسلَّموا بصحَّتها، ورفضوا قبول ما يُنافيها، والمعول الآخر عدم وجود (البِغاء)، الطريقة السَّلبية لتحقق الحَمل بإسلوبٍ مُنافٍ لقوانين الشريعة، ومبادئ السَّماء التي تُوجِبُ الطهارةَ والنَّقاء، ومُتعارضٍ مع أُسس العقل (مريم (عليها السلام))، وثوابته الرَّاسخة.

إنَّ انتفاضةَ العقل (مريم (عليها السلام)) على قبول فكرة الحمل تستقي طاقتها من انعدام العناصر الرئيسة في عملية الإخصاب (الرجل، المرأة، النطفة، البويضة)، وهي بمجملها عناصر ماديَّة ترسَّخت في عقل النسق المهيمن (نفوس القوم)، وغابت عنه الإرادة الرَّبَّانية التي تتحكم بتفعيل هذه العناصر وتعطيلها، باستدعائها أو عدم الحاجة إليها إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[٢٩]، وهذا ما جعل العقل (مريم (عليها السلام)) يعيشُ نَوعًا مِنَ الصِّراع في كيفية قبول مخالفة قوانين ثابتة، وضرب نواميس راسخة، ويتأرجح بحركةٍ تثبت انشدادهُ بحركة قوانين النسق المهيمن (نفوس القوم)، بأسبابها فيظهر عليه الضَّعف والانكسار، والعَجز عن قَبول ما لا تدعمُه الأسباب المادية، ولا يقبلهُ فِكرُ النسق المهيمن (نفوس القوم)، على الرغم من ترعرع العقل (مريم (عليها السلام))، بين أحضان المعجزات، وتَشَبُّعه بفيوضات الخَلق الطَّاهر والانبات الحَسن إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٣٠].

إِذْ تشير لفظة (كُلَّمَا) إلى تكرار تحقق المعجزة بين يَدي العقل (مريم (عليها السلام)) بنزول الموائد عليها من السَّماء، بشهادة النبي زكريا ((عليه السلام)) الذي كان العقل (مريم (عليها السلام)) تحت رعايته، ويرتشف من مَعينِ نبوته، إذ أشرف النبي زكريا ((عليه السلام)) على تربية العقل (مريم (عليها السلام)) وبذر الفضيلة في نفسها، وزكريَّا النبي ((عليه السلام)) شاهد تلك المعجزات وأظهر الدهشة منها، فقال: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ ، فنرى العقل (مريم (عليها السلام)) يتعامل مع دهشة النبي زكريَّا ((عليه السلام)) بنفسٍ مُطمئنةٍ بما عند الله (عز وجل)، ومُؤمنةٍ بقدرة الله (عز وجل) على خرق قوانين الأنساق المهيمنة في الطبيعةِ السائدة، فَيَردُّ على تساؤلات النبي زكريَّا ((عليه السلام))، قائلاً:

هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

لكن العقل (مريم (عليها السلام)) انتفضَ على فكرة تجاوز الأسباب الطبيعية، ورَفَضَ مقولة الحمل والولادة من دون اقتران بطرف آخر (زوج) مكمِّل لعملية الإخصاب، فقال: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا [٣١]، وهنا يشْرَعُ الوحي (جبرائيل (عليه السلام)) بعملية هدم هذا النسق المهيمن واستئصال جذور تساؤلاته وحيرته من العقل (مريم (عليها السلام)) بطاقة الاعجاز الرَّبَّاني، فَقَالَ: كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا [٣٢]، لكي يُنْعِش العقل (مريم (عليها السلام)) بمنحهِ جرعة اطمئنان وآمان، ويفتح أوعيته ويُهيئَهُ لاستقبال واقع خرق الطبيعة المُعتادة، وقبوله أمرًا حتميًّا، فقال (للعقل) مريم (عليها السلام): وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا[٣٣].

فبيَّن الوحي (جبرائيل (عليه السلام)) (للعقل) مريم (عليها السلام) تحقق قضاء الله عزَّ وجَل، ونفاذ أمرهِ، إذْ إنَّ ولادة الروح (عيسى (عليه السلام)) من قبل العقل (مريم (عليها السلام)) من دون أب هو على الله (عز وجل) هَيِّنٌ يسيرٌ، فكما أعطى زكريا وزوجَهُ ((عليهما السلام)) يحيى ((عليه السلام)) على الرغم من انعدام الأسباب الطبيعية للحمل والإنجاب لدى زكريا وزوجَهُ ((عليهما السلام))، وخَلقَ من قبل آدم ((عليه السلام)) من دون وجود الأبوين، وهذا جميعه برهان للناس على قدرة الله تعالى، وتصريفه الأمور الكونية كما يشاء وكيف يشاء ومتى شاء [٣٤].

إنَّ تهشيم النسق المهيمن بطاقة الإعجاز الرَّبَّاني حَتَّم على العقل (مريم (عليها السلام)) قبول واقع النسق الخرقي، وتصديق الوحي (جبرائيل (عليه السلام))، والتَّسليم لأمر الخالق (عز وجل)، وهو ما تحمَّلَهُ العقل (مريم (عليها السلام)) وتقبَّلهُ قبولاً يشُوبَه التَّوجُّس والحَذر مِنْ تداعيات ذلك الحمل، وما سيجلبهُ إليها مِنْ هَيَجان النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، وهو ما دَفعَ العقل (مريم (عليها السلام)) إلى احتواء ذلك الحمل (الروح (عليه السلام)) والاعتزال بهِ مُنفردةً في مكانٍ ناءٍ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا[٣٥]، هَرَبًا مِنْ شظايا النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، وحِفَاظًا على ذلك الحمل الموهوب لها مِنْ ألطف الواهبين، وهو ما يُجسِّد امتداد تأثير النسق المهيمن (نفوس القوم) في حركة العقل (مريم (عليها السلام))، وتجلياته حتى مع مؤازرتها بطاقة الوحي (جبرائيل (عليه السلام)) وحفظها في بيت النبي زكريا ((عليه السلام)) آمنةً مطمئنةً، تبقى تستشعر خطر النسق المهيمن (نفوس قومها)، وحتَّى بعد أن فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ [٣٦]، تتسربُ طاقة قبول الواقع الخرقي من أوعية العقل (مريم (عليها السلام)) في إطار زمني سريع، وتتلاشى القناعة التي اكتسبها مِنْ فيوض الوحي (جبرائيل (عليه السلام))، فتتسارع خطوات العقل (مريم (عليها السلام)) القهقرى في العودة إلى مسار العقل الجَّمعي الثابت الذي تشترك في رسمهِ محدِّداتٌ مُتعدِّدة في مقدِّمتِها أسِنَّةُ النَّسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))؛ لذلك قالت: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا[٣٧]، مُفْصِحَةً عن

هوية العقل المؤمن بقدرة الله (عز وجل)، ولكنه لا يستطيع الانفلات من أغلال عالمه المادي، وسطوة الأسباب المهيمنة، ولا يقوى على تهشيم حِبال النَّسق المهيمن (نفوس القوم) ما لم تصطف معه قُوةٌ أُخرى تتمثَّلُ بالروح (عيسى (عليه السلام)) .

ومن رحم حالة الضَّعف التي شهدها العقل (مريم (عليها السلام)) تنبثق قوة الروح (عيسى (عليه السلام))، وتبدأ حراكها لانتشال العقل (مريم (عليها السلام))، ومعاضدته بفتح قنوات الآمان والاطمئنان بينهما عِبْرَ التَّلطُّف في خِطاب العقل (مريم (عليها السلام))، وهو ما ظهر في قولهِ تعالى: فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا [٣٨]، وقيل: المنادي هو الروح (عيسى (عليه السلام)) وهو الراجح [٣٩]، إذ أنطقهُ الله (عز وجل) بعد وَضْعِهِ تطييباً لقلب العقل (مريم (عليها السلام)) وإيناساً لها، فنداء الروح (عيسى (عليه السلام)) للعقل (مريم (عليها السلام)) عمل على تمزيق حُجُب الغَمِّ والجَّزع التي أطبقت على منافذ العقل (مريم (عليها السلام)) وجَعَلْتُهُ يتمنى الموت كراهيةً لأَنَّ يُعصى الله فيه، واستحياءً مِنَ الناسِ أنْ يظنوا بهِ سوءًا بعد أنْ لم يَجِدْ العقل (مريم (عليها السلام)) في قومهِ رشيدًا ذا فَراسةٍ يُنزِّهَهُ مِنَ السوءِ، فقالت الروح (عيسى (عليه السلام)) مُسلِّيةً العقل (مريم (عليها السلام)): لا تغتم فقد جعل رَبُّك تحت قدمَيك نهرًا تشرب منه، وتتطهَّر من النفاس [٤٠].

إنَّ الروح (عيسى (عليه السلام)) التي عملت على تطمين العقل (مريم (عليها السلام)) وتحفيزه بطاقة العناية الرَّبَّانية، لم تغفل أثر الأسباب الطبيعية التي يحتاجها العقل (مريم (عليها السلام)) في استعادة نشاطه فقالت له: فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا [٤١]، فهي مجموعة حاجات غرائزية (طعام فكلي، وشراب واشربي، وأمن قرِّي عينًا) مِنْ شأن إشباعها أنْ يناغم الحالة النفسية فيخلق الارتياح والسكينة، ويبلور القناعات لدى العقل (مريم (عليها السلام))، وبَعْدَ أنْ يُشبع العقل (مريم (عليها السلام)) حاجته من الطعام، والشراب، والأمن تشرع الروح (عيسى (عليه السلام)) بتوجيه العقل (مريم (عليها السلام)) وتنظيم حركة تفكيره تنظيمًا دقيقًا، فخاطبته قائلةً: فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا[٤٢].

وهنا نجد الروح (عيسى (عليه السلام)) تُمنهج عمل العقل (مريم (عليها السلام))، وتوجهه إلى اتقان سبل التعامل مع النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام)) قناعةً في الانفلات مِنْ سَطوة النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، وحِيلة في الخلاص، وعُذرًا مشروعًا في الامتناع عن الكلام معهم؛ فيصمت العقل (مريم (عليها السلام)) أمام تساؤلات نفوس القوم، ويفسح المجال أمام الروح (عيسى (عليه السلام)) للإجابة عن تلك التساؤلات، وهذا ما دفع العقل (مريم (عليها السلام)) إلى احتضان الروح (عيسى (عليه السلام)) والتَّوجُّه بهِ نحو قومها فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ[٤٣]، لتبدأ في هذا المشهد حركة صراع الاقناع بين نفوس قوم مريم (النسق المهيمن) والروح (عيسى (عليه السلام))، أمَّا العقل (مريم

(عليها السلام)) فينسحبُ إلى مِنْطَقةٍ مُحايدةٍ يَقِفُ فيها مُتابعًا حركة الأحداث، ومُنتظرًا نتائج الصِّراع؛ لكي يعتمدها في رسم مسار رؤيته الجديدة.

تنطلق حركة الصراع من نفوس قوم مريم (النسق المهيمن)، وبما إنَّ النفس ليست واحدة، وليس لها حالة ثابتة تستقرُّ عليها فقد انقسمت في هذا الصراع إلى ثلاث صور، تُعبِّرُ كُلُّ واحدة عن رؤيتها الخاصة، فالنفس الأولى، قالت: يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا[٤٤]، والثانية تخاطب العقل (مريم (عليها السلام)) قائلةً: يَا أُخْتَ هَارُونَ[٤٥]، والأُخرى استحضرت الصورة المثالية للزواج، والحمل، والولادة، فقالت: مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا[٤٦]، واشتغلت تيارات النفوس الثلاث (النسق المهيمن) على استفزاز ثلاث من خلايا العقل (مريم (عليها السلام))، وشحنها بجرعاتٍ إضافية تعمل على إعادة العقل (مريم (عليها السلام)) إلى سيطرة النسق المهيمن، وتهشيم محاولة انفلاته من أغلال ذلك النسق، إذ عملت النفس الأولى على مخاطبة العقل (مريم (عليها السلام)) بصفتهِ الشخصية، وكينونتهِ المفردة، فقالت: يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ليكون الضرب في صميم العقل (مريم (عليها السلام))، بمحاصرتهِ والتضييق عليهِ بإنكار ما صدر عنه من فعل – خارج إرادتهِ – وتهويل فداحة ذلك الفعل والمُبالغة في تصوير أصدائه، وعَزفت النَّفسُ الثانية على أوتار الآصرة الرَّحميَّة، والانتماء النسبي والعقائدي، ففي هذا النّداء ضربٌ مُسْتترٌ للعقل (مريم (عليها السلام))، مَخْبُوءٌ تَحْتَ جُبَّةِ التعالق الأخوي الموصوف بَيْنَ العقل (مريم (عليها السلام))، وهارون ((عليه السلام))، ونَخرٌ في مقام العقل (مريم (عليها السلام))، بتجريدهِ مِنْ حفظ الانتماء الأصيل، ونسفه الإخاء الطاهر وتهشيم صورته الناصعة في أنظار النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، بسعي العقل (مريم (عليها السلام))، -حاشاها-، إلى فعلٍ مُنكرٍ يجلبُ السَّوءَ والعار إلى أَخيها هارون ((عليه السلام))؛ لأَنَّ مُرَادَهم مِنْ (أُخْت هَارُون) مُنْتَسِبَة لِهَارُون، مِثْلَما نَقُولُ نَحْنُ اليوم لِشَخْصٍ عَرَبِيٍّ: يَا أَخَا العَرَب، ولو رَاجَعْنا إنجيل لُوقَا لَوجَدْنَاهُ يُشِيرُ إلى أَنَّ لِمَرْيَمَ أُمٌّ عِيْسَى ((عليه السلام)) نَسَبًا مع النَّبيِّ هَارُونَ أَخِي مُوسَى ((عليه السلام)) عن طريقِ أُمِّهَا[٤٧]، أمَّا النَّفسُ الأخرى فَضَربَتْ بِمعولٍ ذي رأسين، رأسُهُ الأوّل يُهشِّمُ انتماء العقل (مريم (عليها السلام))، إلى الطرف الأوّل من طرفي العلاقة الزوجية المُقدسة التي أثمرتها، مُتَمثِّلاً بأبيها عمران ((عليه السلام)) المُنَزَّه عن السُّوء مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ، والآخر يُهشِّمُ انتماءَ العقل (مريم (عليها السلام)) إلى الطرف الآخر من طرفي العلاقة الزوجية الطاهرة، والذي ينتمي إلى جنس العقل (مريم (عليها السلام))، (المرأة/ الأُم)، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، ويبدو لي أنَّ هذه النفس وَظَّفت رأسي معولِها للحفر في ذاكرة العقل (مريم (عليها السلام))، واستدعاء ما ركَدَ في قاعهِ من رواسب النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام)) من قوانين راسخة تَسْتَلزم وجود طرفين رئيسين لتحقق عملية الحمل، هما: (الرجل/ الزوج) و (المرأة/ الزوج)، ويتعذر تحقق الحمل من دون

اجتماعهما؛ لذا فإنَّ قول هذهِ النفس: مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا.

هو نسقٌ ظاهر يوميءُ إلى نسق مضمر يُحاصر العقل (مريم (عليها السلام)) ويهشم ادعاءها الحمل والولادة من دون زوج باستحضار الصورة الناصعة للعلاقة الزوجية المثالية في النسق المهيمن من محيط العقل (مريم (عليها السلام))، وهي علاقة عمران ((عليه السلام)) والد مريم بوالدتها ((عليها السلام))، إذ يُمثِّل الخروج عن قوانين ذلك الأنموذج المثالي المهيمن خروجًا عن قوانين العفة وتجاوزًا لأصول الطهر والنقاء، لاسيما إذا كان المُتجاوز يمثل النتيجة الطبيعية لاجتماع طرفي الأنموذج المثالي المهيمن.

وقد ارتكز التعبيرُ عن شناعة ما جاءَ به العقل (مريم (عليها السلام))، على نفي الصِّفات السَّلبيَّة عن أهل العقل (مريم (عليها السلام))، إذ كان بيتُها بيت صلاح وعبادة، فأخوها صالح، وأبوها ورع تقي وأُمها طاهرة.

وتفعيل معول صلاح الأُسرة عمل على تهشيم هوية العقل (مريم (عليها السلام))، ونسف انتمائها إلى محيط الأُسرة الصَّالحة التي لا يتوقع صدور الفاحشة من أحد أفرادها؛ لأَنَّ ((ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش، وفيه دليل على أن الفروع غالباً تكون زاكية إذا زكت الأُصول، وينكر عليها إذا جاءت بضد ذلك))[٤٨].

إنَّ ضغط التساؤلات التي أطلقها النّسقُ المهيمنُ (نفوس قوم مريم (عليها السلام)) خلق حصارًا طوَّقَ العقل (مريم (عليها السلام))، وأرهقه، فاستنجد بالروح (عيسى (عليه السلام)) وأستغاث بها لتهشيم افتراءات النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام)) والرَّد على اتهاماتهِ، إذ بدأ العقل (مريم (عليها السلام))، باستقبال شحنات الروح (عيسى (عليه السلام))، فأحال إلى الروح (عيسى (عليه السلام)) مهمة الإجابة عن تساؤلات نفوس القوم (النسق المهيمن) عبر حركةٍ إشارية موجزة جسدها قوله تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ [٤٩]، لينسحب العقل (مريم (عليها السلام))، من ساحة صراع الإقناع مع نفوس القوم (النسق المهيمن) الذي يحتكم إلى القوانين الماديَّة والموروثات الراسخة، ويمهد السبيل أمام الروح (عيسى (عليه السلام)) لتأخذ موقعها وتشرع بتهشيم دعائم النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام)).

إنَّ إشارة العقل (مريم (عليها السلام)) إلى الروح (عيسى (عليه السلام)) أحدثت دهشة لدى نفوس القوم (النسق المهيمن)، إذ عدُّوا ذلك ضرباً لنسقٍ مهيمنٍ في وجودهم يوقنُ باستحالة تكلُّم المولود الذي في المهد؛ لذلك قالت نفوس قوم مريم: قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا [٥٠].

وهنا تبدأ الروح (عيسى (عليه السلام)) بتقويض دعائم النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام)) بطاقة التعريف عن حقيقتها، فقالت: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ [٥١]، وبيان مكتسباتها، بقولها: آتَانِيَ الْكِتَابَ[٥٢]، مصدر قوتها من الله (عز وجل) الذي يُغنيها عن أي مصدر آخر، ثم قالت: وَجَعَلَنِي نَبِيًّا[٥٣]، لتكشف عن وظيفتها بوصفها نبيًّا باطنيًّا يُمارسُ عملهُ داخل كل

إنسان، ونبياً ظاهرياً يعملُ على اصلاح حياة الناس الذين يُكلَّف بهدايتهم وإصلاحهم كنبوة الروح عيسى ((عليه السلام)) لقومهِ (بني اسرائيل)، إذ اختصها الباري (عز وجل) بفيوض النبوة؛ لما وجد فيها من مؤهلات وأوكل إليها مهمة هداية الخلق وتبليغ رسالته، واصلاح أحوال الأمة، وتصحيح مساراتها لما فيه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لذلك لم تكن هذه الروح السامية لتتوافر لدى كل إنسان، إذ قالت: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ [٥٤]، ومن ثم فإن «كلامه ((عليه السلام)) بأفصح بيان وأبلغ لسان وهو لا يزال في طور خروجهِ من بطن أمه أمر يعتبر معجزة عظيمة ثانية – بعد معجزة ولادته من غير أب – دال على عظمة الخالق، وكمال قدرته»[٥٥]، ومُبيِّن خصوصية المنزلة التي حظيت بها هذه الروح (عيسى (عليه السلام)) لدى الباري (عز وجل) الذي اصطفاها بالنبوة، وأيَّدها بأعظم المعجزات.

تبدأ الروح (عيسى (عليه السلام)) ببث شحنات أوليَّة رئيسة إلى النسق المهيمن (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، فتقول: وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا[٥٦]، فتشرع بترسيخ فكرة العبادة لدى نفوس قوم مريم، والتأكيد بوجوبيتها، إذ هي الوصية التي أوصى الله (عز وجل) الروح (عيسى (عليه السلام)) بتأديتها والالتزام بها ما دام في الروح حياةٌ.

تستثمر الروح (عيسى عليه السلام) ما تنتجه العبادات (الصلاة، والزكاة) لدى نفوس قوم مريم (النسق المهيمن) من طاقات إيجابية في تطهير تلك النفوس وصقلها لإزالة ما ترسب فيها من شوائب وأدران، وتبدأ بحرث أرضيتها وتعريضها لأشعة الإيمان النقي وتهيئتها لبذرها ببذور الإصلاح الذي يبدأ بتلك الأنفس ثم ينفذ من خلالها إلى الأسرة وَبَرًّا بِوَالِدَتِي[٥٧]، في إشارة مهمة إلى احتضان الروح (عيسى (عليه السلام)) للعقل (مريم (عليها السلام))، ورعايتها له، والذود عن عِفَّته.

وبعد تنظيم محيط الأسرة عمدت الروح (عيسى (عليه السلام)) إلى الانفتاح على المجتمع بغرسِ أساليب التعامل السليم بين أفراده بتهشيم الأنا المتجبرة وإذابة نوازع التسلط والكبر المهيمنة على النفوس، فقالت: وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا[٥٨]، لتكون صورة الروح (عيسى (عليه السلام)) أُنموذجاً تقتدي بهِ كُلُّ نفس من نفوس القوم في تعايشها وتعاملها في مجتمعٍ تسودهُ الألفة والتَّراحم.

وجعلت الروح (عيسى (عليه السلام)) خاتمة كلامها (السلام عليَّ) المكتنز بدلالة الأمن والطمأنينة والراحة، متخذًا منه دعامة رئيسة للدعاء من رب العالمين أن يفيض عليه السَّلامَ في أعظم وأخطر ثلاثة أيام من أيام دورته في الوجود، الأوّل يَوْمَ وُلِدْتُ [٥٩]، وما شهده هذا اليوم من انقلابات جوهرية، ومعجزات ربانية، وتغييرات شمولية، والثاني وَيَوْمَ أَمُوتُ [٦٠]، وما انطوى عليه ذلك اليوم من انقسامات فكرية جعلت بعضهم يذهب إلى القول بموت الروح (عيسى (عليه السلام)) بعد صلبها وتعذيبها، ويرفض بقبول الحقيقة التي صرَّح بها القُرآنِ الكَرِيمْ في قوله تعالى: عز وجل وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [٦١].

وقوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا[٦٢]. والآخر وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا [٦٣]، حين ينزله الله (عز وجل) في زمن ظهور الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف)، الذي يعمل على إظهار دين الحق الذي وَعَدَ الله (عز وجل) بإظهاره وإعلاء كلمته، وهو التوحيد، إذ قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[٦٤]، فعبارة (ليظهره على الدين كله) إنّما «تشير إلى ظهور الدين الحق على جميع الأديان من خلال معرفة الهدى، بمعنى أنَّ الناسَ لهم دين لكنهم في ضلال وليس هو الدين الحق»[٦٥]، ومعرفة الدين عن هدى لا يكون بالإكراه وإنَّما بالحجج والبراهين، والاستدلال العقلي، ومحاججة الآخر بما يعتقده ويؤمن بهِ؛ لذا فإنَّ من مقدمات إظهار دين التوحيد هي المجيئ بالإنجيل والتوراة كما أُنزلتا لتكونا إلى جنب القرآن الكريم في بناء حكومة الإنسانية، لما في تلك الكتب السماوية من هدى ونور بصريح النص القرآني، وهذا ما ينتظره المؤمنون، ويرتقبون تحققه بخروج المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) ونزول عيسى بن مريم (عليها السلام).

نتائج البحث:

وبَعْدَ هذهِ الرِّحلة البحثيَّة المُباركة في رِحاب قَصَّة السَّيدة مريم (عليها السلام) لابُدَّ مِنْ حط الرِّحال في هذا الموطن مِنَ البحث، وتثبيت أهم النتائج التي أفصحت عنها هذهِ الدِّراسة:

١- إنَّ القصة القرآنية التي هي كلام الله (عز وجل) ووحيه إلى رسوله (صلى الله عليه واله) تقوم على الواقع وتلتزم الحقيقة من دون مبالغة أو زيادة، وهي ليست من نسج الخيال، أو تجسيدًا لمكامن النفس وتجاربها.

٢- إنَّ عناصر البناء القصصي كانت حاضرة في قصة السَّيدة مريم (عليها السلام)، وتآزرت في بلورة أهدافها، وقد تمثَّلت بالأحداث، والشخصيات، والحوار، وأوعية الحدث (الزمان والمكان)، ولم تكن الغاية المنشودة في ذاتها بل كانت وسيلة لتحقيق الأهداف السَّامية للقرآن الكريم.

٣- تضمنت قصة السَّيدة مريم (عليها السلام) نسقاً ظاهراً تجسَّدَ في الحوار المتحقق بين أبطال القصة (مريم (عليها السلام))، الوحي جبرائيل ((عليه السلام))، عيسى ((عليه السلام))، بني إسرائيل (قوم مريم (عليها السلام))، ويتوارى خلف أستار هذا النسق الظاهر نَسَقٌ مُضْمَر يُجسِّدُ الصِّراعَ المُحْتَدم بَيْنَ مريم (عليها السلام) + أنصارها (عيسى (عليه السلام) والوحي (عليه السلام))، وقوم مريم (عليها السلام) (بني إسرائيل).

٤- إنَّ السيدة مريم س(عليها السلام) مثَّلت في القصة (العقل) المُتأثِّر بمعطيات المادة والموروث الاجتماعي، ومثل عيسى ((عليه السلام)) (الروح) السَّامية التي ولدت على الفطرة النَّقية والتوحيد الخالص لله (عز وجل)، ومَثَّلَ جبرائيل ((عليه

السلام)) الوحي الذي يدعم العقل (مريم (عليها السلام))، ويمدَّهُ بفيوضات العناية الرَّبَّانية، في حين مَثَّل قوم (مريم (عليها السلام)) النفس النسق المهيمن نتيجة تعدِّدهم واختلافهم في التفكير وأُسلوب الحوار والتعبير.

٥- كانت نفوس قوم مريم في القصة تُجسِّدُ النَّسقَ المهيمن الذي يفرض حصارًا على العقل (مريم (عليها السلام))، ويُسلِّطُ عليه هيمنة تُحاولُ شَلَّ حركته وتضييق مساحة تفكيره، وجعله مُنْشَدًّا إلى ثوابتها الرَّاسخة.

٦- عَمِلَتْ الروح (عيسى (عليه السلام)) على مساندة العقل (مريم (عليها السلام))، ومؤازرته في تهشيم الأنساق المهيمنة (نفوس قوم مريم (عليها السلام))، والذود عن عِفَّة العقل (مريم (عليها السلام)) وطَهارتهِ.

الهوامش

١- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٣م، ج٤/ ٢١٨.

٢- المصدر نفسه.

٣- لسان العرب، ابن منظور، د. ط، د. ت، دار صادر، بيروت- لبنان، م١٠، باب القاف، ص٣٥٢- ٣٥٣.

٤- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج٥، باب (النون والسين): ٤٢٠.

٥- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نعمان بوقرة، جدار للكتاب العلمي، عمان- الأردن، ط١، ٢٠٠٩م: ١٤٠- ١٤١.

٦- ينظر: السرد العربي القديم (الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل)، د. ضياء الكعبي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م: ٢١؛ تمثيلات الآخر (صورة السرد في المتخيل العربي الوسيط)، د. نادر كاظم، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م: ٩٢، في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، د. حكمت صباغ الأديب، ط٣، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م: ٣٢.

٧- ينظر: السرد العربي القديم (الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل: ٢٢.

٨- ينظر: تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط): ٩٧.

٩- ينظر: الإسلام من وجهة نظر علم الأناسة، غيرتس، ترجمة أبو بكر باقادر، ط١، دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٣: ١١.

١٠- ينظر: تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط): ٩٧.

١١- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. أحمد يوسف عبد الفتاح، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠: ١٢٥.

١٢- ينظر: النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، عبد الله الغذامي، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م: ٧٥.

١٣- ينظر: النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، عبد الله الغذامي، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المملكة المغربية، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م: ٧٧- ٧٨.

١٤- ينظر: المصدر نفسه، ٦٥- ٧٦.

١٥- ينظر: النقد الثقافي نظرة جديدة أم مشروع متجدِّد، معجب الزهراني، مجلة علامات في النقد، العدد، سنة ٢٠٠١م: ٣٦٨.

١٦- النظرية والنقد الثقافي (الكتابة العربية في عالم متغير، واقعها، سياقاتها وبناها الشعورية، محسن جاسم الموسوي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠.

١٧- ينظر: ثقافة الأسئلة، عبد الله الغذَّامي، ص١٢٥.

١٨- علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم (قدس) ، مجمع الفكر الإسلامي، ط٦، ١٤٣٣هـ: ٣٥٣.

١٩- ينظر: القصص القُرآني، السيد محمد باقر الحكيم (قدس)، ط٢، مطبعة ليلى قم- ايران، ١٩٩٨م: ٢١.

٢٠- ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٥٦.

٢١- الأعراف: ١٧٦.
٢٢- يوسف: ١١١.
٢٣- ينظر: قصص القرآن الكريم دلاليًّا وجماليًّا، الدكتور محمود البستاني، ط١، مطبعة برهان، قم- ايران، ١٤٢٥هـ: ١/ ١٥.
٢٤- سورة مريم: ١٦.
٢٥- سورة مريم: ١٧.
٢٦- سورة مريم: ١٨.
٢٧- سورة مريم: ١٩.
٢٨- سورة مريم: ٢٠.
٢٩- سورة مريم: ٣٥.
٣٠- سورة آل عمران: ٣٥- ٣٧.
٣١- سورة مريم: ٢٠.
٣٢- سورة مريم: ٢١.
٣٣- سورة مريم: ٢١.
٣٤- يُنظُر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق- سوريا، ١٤١١هـ- ١٩٩١م: ج١٦، ص٧٠.
٣٥- سورة مريم: ٢٢.
٣٦- سورة مريم: ٢٣.
٣٧- سورة مريم: ٢٣.
٣٨- سورة مريم: ٢٤.
٣٩- يُنظُر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي ، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م: مجلد ١١، ج٢١، ص١٧٤.
٤٠- يُنظُر: تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م: ٥/ ٢٢٤، ومَجْمع البيان في تفسير القُرآن، الفضل بن الحسن الطَّبرسي، ط١، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ودار الكِتَاب العربي، بغداد، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م: ج٦/ ٣٥٥.
٤١- سورة مريم: ٢٦.
٤٢- سورة مريم: ٢٦.
٤٣- سورة مريم: ٢٧.
٤٤- سورة مريم: ٢٧.
٤٥- سورية مريم: ٢٨.
٤٦- سورة مريم: ٢٨.
٤٧- يُنظُر: مَنْ هي مريم أخت هارون في القرآن، ومن هي مريم أم المسيح، مركز الرصد العقائدي التابع للعتبة الحسينية المقدسة: https:\\www. Alrasd. Net, Arabic, qur....@ ٢٠١٧- ٢٠٢٠.

٤٨- يُنظُر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي البغدادي، دار احياء التراث العربي، بيروت- لبنان، (د. ط)، (د. ت): ج١٥/ ص٨٨.
٤٩- سورة مريم: ٢٩.
٥٠- سورة مريم: ٢٩.
٥١- سورة مريم: ٣٠.
٥٢- سورة مريم: ٣٠.
٥٣- سورة مريم: ٣٠.
٥٤- سورة مريم: ٣١.
٥٥- الوحدة الموضوعية في سورة مريم، حدة سابق، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م: ١١٢.
٥٦- سورة مريم: ٣١.
٥٧- سورة مريم: ٣٢.
٥٨- سورة مريم: ٣٢.
٥٩- سورة مريم: ٣٣.
٦٠- سورة مريم: ٣٣.
٦١ سورة النساء: ١٥٧- ١٥٨.
٦٢- سورة آل عمران: ٥٥
٦٣- سورة مريم: ٣٣.
٦٤- سورة التوبة: الآية ٣٣، وسورة الصَّف: الآية ٩.
٦٥- طور الاستخلاف، عالم سبيط، مركز النيلي للدراسات، ط١، ١٤٢٤هـ: ١٠٦.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- الإسلام من وجهة نظر علم الأناسة، غيرتس، ترجمة أبو بكر باقادر، ط١، دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٣.

٢- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٣- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٤- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي ، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٥- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق- سوريا، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٦- تمثيلات الآخر (صورة السرد في المتخيل العربي الوسيط)، د. نادر كاظم، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م.

٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي البغدادي، دار احياء التراث العربي، بيروت- لبنان، (د. ط)، (د. ت).

٨- السرد العربي القديم (الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل)، د. ضياء الكعبي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م.

٩- طور الاستخلاف، عالم سبيط، مركز النيلي للدراسات، ط١، ١٤٢٤هـ.

١٠- علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم (قدس)، مجمع الفكر الإسلامي، ١٤٣٣هـ.

١١- في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، د. حكمت صباغ الأديب، ط٣، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م.

١٢- قصص القرآن الكريم دلاليًّا وجماليًّا، الدكتور محمود البستاني، ط١، مطبعة برهان، قم- ايران، ١٤٢٥هـ.

١٣- القصص القُرآني، السيد محمد باقر الحكيم (قدس)، ط٢، مطبعة ليلى قم- ايران، ١٩٩٨م.

١٤- لسان العرب، ابن منظور، د. ط، د. ت، دار صادر، بيروت- لبنان.

١٥- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. أحمد يوسف عبد الفتاح، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠.

١٦- مَجْمع البيان في تفسير القُرآن، الفضل بن الحسن الطَّبرسي، ط١، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ودار الكِتَاب العربي، بغداد، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

١٧- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نعمان بوقرة، جدار للكتاب العلمي، عمان- الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.

١٨- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

١٩- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع.
٢٠- مَنْ هي مريم أخت هارون في القرآن، ومن هي مريم أم المسيح، مركز الرصد العقائدي التابع للعتبة الحسينية المقدسة: https:\\www. Alrasd. Net, Arabic, qur....@ 2017- 2020.
٢١- النظرية والنقد الثقافي (الكتابة العربية في عالم متغير، واقعها، سياقاتها وبناها الشعورية، محسن جاسم الموسوي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان.
٢٢- النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، عبد الله الغذامي، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م.
٢٣- النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، عبد الله الغذامي، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المملكة المغربية، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م.
٢٤- النقد الثقافي نظرة جديدة أم مشروع متجدِّد، معجب الزهراني، مجلة علامات في النقد، العدد، سنة ٢٠٠١م.
٢٥- الوحدة الموضوعية في سورة مريم، حدة سابق، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.